رأي القدس

زحف الاسلاميين في الكويت

■ فوز الاسلاميين باغلبية مقاعد مجلس الامة الكويتي في الانتخابات الاخيرة يستحق وقفة تأمل متعمقة لتفهم معانيه وانعكاساته، ليس على السياسة الكويتية فقط، وانما على المنطقة بأسرها.

فربما يبدو مفهوماً ان يفوز الاسلاميون في بلدان فقيرة معدمة ينخرها الفساد، ولكن ان يفوزوا في بلد نفطي، مثل الكويت يعتبر دخل الفرد فيه هو الاعلى تقريباً في العالم، فهذا امر يؤشر الى عملية تغيير على درجة كبيرة من الاهمية باتت تجتاح المنطقة العربية بأسرها.

الكويت تعتبر حالة خاصة في محيطها، فالبلد تعرض الى غزو من قبل الجار العراقي، ووقع تحت الاحتلال لسبعة اشهر، وجرى «تحريره» على ايدي القوات الامريكية، ولهذا يتوقع الكثيرون ان تكون الغلبة فيه للجماعات الليبرالية، والمؤيدة للولايات المتحدة وسياساتها في المنطقة، ولكن ما حدث هو العكس تماماً.

هناك عدة تفسيرات لهذه الظاهرة المحيرة، ابرزها اتساع جماهيرية التيار الاسلامي في الكويت، وعودته الى السرب الاسلامي العام الذي خرج من عباءته، وانفصل عنه لفترة مؤقتة أثناء الغزو، وفشل المشروع الامريكي في العراق، وتمزيق وحدة هذا البلد، وانحياز القوات الامريكية الى طائفة دون اخرى، وتعزيز الدور الايراني على حساب الدور والهوية العربية للعراق. ويمكن اضافة تفسير آخر وهو ضعف التيار الليبرالي وانحرافه عن الخطين الاسلامي والعربي القومي، وانحيازه الاعمى للولايات المتحدة وسياساتها، واعلانه العداء لمحيطه العربي، بحجة مساندة جماهيرية للرئيس العراقي صدام حسين.

فالليبراليون الخليجيون، والكويتيون منهم على وجه الخصوص، بالغوا في ارتمائهم في الاحضان الامريكية، ومعاداة الاسلاميين، وتأييد الغزو الامريكي للعراق، حتى انهم اعتبروا هذا الغزو تحريراً، وتباهوا بدورهم وبلادهم في هذا التحرير.

ومن سوء حظ هؤلاء ان توقعاتهم في عراق ديمقراطي مستقر يتمتع بالحريات وحقوق الانسان ثبت انها لم تكن في مكانها، فالعراق اليوم اصبح يشكل خطراً اكبر على الكويت من النظام السابق، فقد كان النظام العراقي في زمن الرئيس صدام حسين محاصراً ضعيفاً، ومع ذلك حافظ على وحدة التراب العراقي، وضبط الاوضاع الامنية فيه، وحقق توازناً استراتيجياً مع كل من ايران في الشرق واسرائيل في الغرب.

وكان الاعتقاد السائد ان دخول المرأة عالم السياسة كناخبة ومرشحة في الانتخابات البرلمانية سيصب في مصلحة التيار الليبرالي، ولكن عدم فوز اي من المرشحات، وتحقيق الاسلاميين نجاحاً كاسحاً، اكدا ان التيار الاسلامي ما زال القوة السياسية الوحيدة المنظمة التي تتمتع بطرح يحظى بتأييد غالبية الشعب الكويت.

الكويت اليوم التي تنتج اكثر من مليونين ونصف المليون برميل من النفط تشكل ركيزة هامة من ركائز الاستراتيجية الامريكية في المنطقة، وفوز الجناح الاسلامي في انتخاباتها الاخيرة لابد انه يثير قلق واشنطن، مثلما يثير قلق العواصم الغربية الاخرى. فواشنطن والاتحاد الاوروبي فرضا حصاراً مالياً على الفلسطينيين عقاباً لهم على انتخاب حركة «حماس» وبهدف اسقاط حكومتها. ولا نعرف ما اذا كانت واشنطن ستلجأ الى الاسلوب نفسه في الكويت.

الاسلاميون يتقدمون في انتخابات فلسطين والعراق وينجحون في بسط سلطتهم في الصومال من خلال طرد لوردات الحرب على ايدي جيش المحاكم الشرعية، ويعيدون توحيد صفوفهم وتجميعها في افغانستان، ويفوزون اخيراً في انتخابات الكويت.

انها ظاهرة تستحق الدراسة، ومن قبل واشنطن على وجه الخصوص، لمعرفة الاسباب والتي نعتقد ان ابرزها السياسة الخارجية الامريكية المعادية للعرب والمسلمين والموالية لاسرائيل.

منبر السودان ليس بديلاً عن العمل الحزبي الفاعل

د. عبدالوهاب الافندي *

■ تابعت بكثير من الاهتمام والتفاؤل المبادرة التي أطلقتها في نهاية (أيار) مايو الماضي وبداية حزيران (يونيو) مجموعة من المثقفين والناشطين السودانيين لإنشاء منظمة مدنية/سياسية أطلقت على نفسها تسمية «منبر السودان». وبحسب المؤسسين فإن هدف التنظيم الجديد هو تعبئة الأغلبية الصامتة «لتأسيس أكبر وأقوى منظومة ضغط لصالح الوطن الكبير والشعب الكبير» بهدف إخضاع السلطة لإرادة الشعب وملء الفراغ الذي تركه ضعف وعدم فاعلية النشاط الحزبي. ويؤكد المنبر على أنه منظمة غير حزبية، تقبل الأعضاء بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية، بل تشجعهم على التمسك بتلك الانتماءات، والسعي معاً لتحقيق الإجماع على «أجندة وطنية»، ومن ثم التسويق والترويج لهذه الأجندة ليأخذها من يريد «من أحزاب أو أفراد». ويؤكد المنبر على أنه «لا ينافس الأحزاب الأخرى في مقاعدها وسلطتها او مغانمها السياسية.. فهو منبر بلا أجندة انتخابية أو زعامية .. يصنع المبادرات ويرفع قيمة الالتزام الوطني ولا يناصر حزباً ضد آخر».

وقد لقيت هذه المبادرة التي قادها الكاتب الصحافي المتميز عثمان ميرغني استجابة واسعة، تمثلت في الحشود الكبيرة التي شهدت الاجتماع التأسيسي واللقاء الجماهيري الذي دعا له المنبر. وكما هو متوقع فقد قوبلت المبادرة بانتقادات حادة من قبل معارضين لها، معظمهم من جهات حزبية. وقد تركزت الانتقادات على شخصية صاحب المبادرة، وتاريخه في دعم النظام الحالي، إضافة إلى الإشارة إلى معاداة المبادرة وصاحبها للأحزاب السودانية، وتغاضيها عن الظروف الموضوعية لضعف الحياة الحزبية، المتمثلة في القمع المنظم وتداعياته. وقد انتقد آخرون المنحى اللاسياسي للمنبر، مقارنة بحركة «كفاية» المصرية التي ألح مؤسسو المنبر إلى اتخاذها نموذجاً. فحركة «كفاية» المصرية بالعكس، جعلت الهم السياسي في قمة أولوياتها، وعارضت التمديد والتوريث، بينما يصرح المنبر بأنه لا يريد أن ينازع الأمر أهله، وأنه سيكتفي بأن يكون جماعة ضغط ترفع مطالب الشارع للحكام ولقادة الأحزاب.

ابتداءً لا بد من القول بأن فكرة المنبر لم تكن فقط نتيجة منطقية لما ظل الأخ عثمان ميرغني ينادي به في كتاباته منذ فترة طويلة، بل هي أيضاً ضرورة أملاها الركود السياسي القائم. لقد ظل عثمان ميرغني وعدد متزايد من المعلقين السودانيين يتناولون الوضع المتدهور في السودان بالنقد والتحليل الموصل إلى نفس النتيجة: وهو أن الحكومة القائمة أخفقت في أداء مهمتها، وفقدت ثقة الجماهير، وأخذت تقود البلاد من كارثة إلى أخرى. ولكن المعارضة التي كان ينبغي أن تستفيد من هذا الوضع تجد نفسها في وضع أسوأ، حيث دخلت في صفقات كرست الوضع القائم، كما كان الحال مع الحركة الشعبية لتحرير السودان أو التجمع الوطني أو غيرها. وقد زاد من الإحباط أن الاتفاقات والتسويات التي دخلت فيها هذه القوى لم تكرس الوفاق الوطني المنشود حول قيم متفق عليها، بل كانت بالعكس، خيانة لكل القيم، بما فيها قيم الأطراف الرئيسية في التسويات. فهي اتفاقات على المصالح والمغانم على حساب غالبية الشعب، أشبه باتفاق عصابات المافيا منه بتلاقي القوى السياسية. وكل ما تبرر به الأطراف المعنية هذه الخيانة لمناصريها هو التبشير بخيانة أكبر، والزعم بأن هذا الاتفاق مؤقت قصد منه تعزيز موقع الطرف المعني في انتظار المنازلة الفاصلة، وهو عذر أقبح من الذنب، لأنه يبشر بالغدر فضيلة. وقد أصاب هذا الوضع الجماهير بالإحباط وفقدان الثقة في أصحاب الرأي.

ولكن هنا تبدأ المشكلة. ذلك إن تأسيس المنبر، وإن كان خطوة منطقية كما أسلفنا إن لم تكن حتمية، إلا أن تداعيات تشكيله لن تتوقف عند الأهداف التي حددها. ذلك أن مؤسسي المنبر لو كانوا محقين في الأسباب والتحليلات التي دعتهم إلى تشكيله ـ وهو ما نرجحه ـ فإن المنبر سيكون أمام أحد احتمالين: إما الفشل والتحول إلى حركة جامدة تسقط فيما سقطت فيه الأحزاب والمؤسسات الأخرى التي سعى لتدارك فشلها، أو أنه سيتدحرج مثل كرة الثلج حتى يتحول إلى قوة سياسية فاعلة تتجاوز الأهداف المحدودة ومجرد دور حركة الضغط الذي أراده مؤسسوها. ولنا عبرة هنا في حركة التضامن النقابية التي نشأت في بولندا في مطلع الثمانينات وكانت في أول أمرها حركة مطلبية نقابية في موقع عمل محدد، ولكنها أصبحت بسبب تداعيات الأوضاع حركة معارضة شاملة أجبرت الحكومة على التعامل معها وساهمت على المدى الطويل في إسقاط النظام الشيوعي. يمكن أن يقال الشيء نفسه في حركات الاحتجاج الطلابية والنقابية والمهنية التي مهدت لانتفاضتي أكتوبر 1964 وأبريل 1985 في السودان. ذلك أن ديناميات حركات المجتمع المدني تؤدي بالضرورة إلى الدخول في مواجهة مع أي نظام غير ديمقراطي، ولهذا فإن منطق الدكتاتورية يرفض وجود مثل هذه التنظيمات.

ويجب هنا أن نصرح بعدم صواب الانتقادات التي وجهت لمبادرة المنبر لكونها لم تصرح بمطلب تغيير النظام كما فعلت نظيرتها حركة كفاية المصرية. ذلك لأن الوضع في السودان يختلف جذرياً عنه في مصر. فهنا تستند الحكومة الحالية إلى اتفاقية سلام ذات أبعاد دولية، والسعي لإسقاطها يهدد بإعادة إشعال الحرب الأهلية فضلاً عن استعداء المجتمع الدولي. لهذا فإن ضبط النفس الذي فرضه المنبر على نفسه هو موقف صحيح ومسؤول. ولكن السؤال المطروح هو أن المنبر قد لا يفلح في احتواء القوى التي يطلقها في الإطار الذي رسمه لنفسه. فما الذي سيحدث لو أن المنبر تحول إلى حركة جماهيرية كاسحة تقف وراء مطالب ترفض الحكومة الوفاء بها؟ هل سيخوض المواجهة المحتومة مع النظام، أم سيسعى إلى تجميد وإلغاء نفسه هرباً من المواجهة؟

في نظرنا أن هناك عقبتين لا بد من تجاوزهما حتى يتاح لمثل هذه المبادرة وأمثالها أن تحقق المرجو منها. أما العقبة الأولى فتتمثل في سقوط وانهيار الحركة الإسلامية السودانية التي ينتمي إليها صاحب المبادرة وكثير من مؤيديه، وغياب دورها السياسي في الوقت الذي يحكم فيه السودان باسمها. المبادرة تسعى لحل الإشكال جزئياً بإعطاء صوت مستقل وناقد للتيار الإسلامي. ولكن هذا لا يكفي، ولا يغني عن نشأة تيار إسلامي حزبي مستقل، تعباً في إطاره الأغلبية الصامتة في أوساط التيار الإسلامي، وتتبرأ من ممارسات النظام الحالي وممن باعوا المبادئ بالمصالح، حتى لا نقول باعوا الدين بالدنيا، أو (إذا أحسنا بهم الظن) ضلوا الطريق في المسعى للتوفيق بين المبادئ والواقع، ثم تهيئ نفسها للتوافق مع بقية القوى السياسية حول ما ينقذ البلاد من المصير المظلم الذي ينتظرها في حال فشل جهود الإصلاح.

وقد يقال ان المؤتمر الشعبي المعارض يصلح للعب هذا الدور، حيث أنه أعلن المفاصلة مع التيار الإسلامي الحاكم، وجمع في إطاره الإسلاميين المعارضين، وسعى لبناء تحالفات مع بقية قوى المعارضة الأخرى، بما فيها الحركة الشعبية وحزب الأمة وحتى الحزب الشيوعي. ولكن المؤتمر الشعبي للأسف قاصر عن لعب هذا الدور، أولاً لأنه عجز حتى الآن عن استيعاب الأغلبية الصامتة بين الإسلاميين (وليس فقط فريق المنتفعين من النظام)، كما أنه دأب على تسويق نفس الرؤية القديمة التي تسببت في الكارثة الحالية، وهي رؤية تجمع بين الاعتذارية وعدم الرغبة في مواجهة أخطاء الماضي فضلاً عن تجاوزها. فالمؤتمر الشعبي بصورته الحالية نسخة طبقة الأصل للمؤتمر الوطني ناقصاً السلطة والثروة، في حين أن الحاجة هي إلى وعاء سياسي مختلف، يستجيب لتطلعات ورؤية غالبية الإسلاميين الذين يريدون القطيعة مع الماكيافيلية التي يشترك فيها المؤتمران، ويسعون إلى تطوير رؤية إسلامية ناضجة تستمد العبرة من أخطاء الماضي وتمارس القطيعة معها، وتقبل بالتعددية إطاراً، وتستجيب كذلك إلى تطلعات الأجيال الناشئة والأغلبية المسلمة في السودان إلى رؤية إسلامية منفتحة تسعى إلى تجسيد قيم الإسلام في الواقع بدون أن تستعدي كل من لايتفقون مع هذه الرؤية.

وإذا كان المنبر خطوة أولى في هذا الاتجاه حيث أنه أتاح للإسلاميين في مبادرة واحدة أن ينتقلوا من الصمت والسلبية إلى مجال الفعل والتأثير، وفي نفس الوقت مشاركة الآخرين في منبر واحد يتفق على أهداف وطنية مشتركة، فإن هذا لا يعفي غالبية الإسلاميين من تحمل مسؤوليتهم الجماعية. الوفاء بهذه المسؤولية يتم خلال العودة إلى الساحة السياسية من بوابة غير بوابة احتكار السلطة، وتبني نظرة نقدية تجاه التجربة الإسلامية في الحكم وسلبياتها. فالحكومة الحالية اغتصبت التمثيل الإسلامي اغتصاباً، ومثل احتكارها له عبئاً على الأغلبية الإسلامية التي تحمل أوزارها دون أن يكون لها صوت فيما يجري. ولكن الأغلبية الإسلامية تواطأت بالصمت حيناً وبالمشاركة أحياناً في دعم النظام، وهي بالتالي تتحمل أوزاره ما لم تخرج إلى العلن وتصرح بخلاف ذلك.

وهذا بدوره يفتح الباب لمواجهة التحدي الآخر، وهو تحقيق إجماع وطني حول اتجاه التغيير المطلوب لتجنب انحدار البلاد نحو حرب أهلية في حالة ما إذا نجح الضغط الشعبي في إنضاج الظروف للتغيير. ومثل هذا الإجماع يستدعي وجود حركة إسلامية تتمتع بالصدقية وتمثل التيار الإسلامي تمثيلاً حقيقياً، وتملك بالتالي شرعية التفاوض مع بقية القوى السياسية حول التغيير القادم بحيث لا يكون على حساب القيم الإسلامية ولا على حساب الحقوق السياسية المشروعة للتيار الإسلامي والقوى الشعبية التي يمثلها.

منبر السودان كما ذكرنا مبادرة حان وقتها وخطوة مباركة نحو هذه الأهداف السامية. ونحن من أول الداعمين لهذه المبادرة التي نقول عنها ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم عن حلف الفضول: أنه لو دعينا بها لأجبنا، بل كنا نتمنى لو كنا من السابقين بها. ولكن هذه المبادرة لا تبرئ ذمة الإسلاميين من واجب النشاط سياسياً وحزبياً تحت رايتهم الخاصة على الساحة السياسية. وفوق ذلك فإن المبادرة لا تعوض عن الحاجة إلى وجود نشاط حزبي فاعل يقود الحراك السياسي في البلاد. ذلك أن المبادرات المدنية من هذا النوع تفترض وجود أحزاب سياسية قادرة على استيعاب التيارات السياسية المختلفة والتعبير عنها في إطار من التوافق العام على شكل النظام السياسي في البلاد. وبدون هذا فإن البلاد مهددة بالصومالة والانحدار إلى صراع غير مضبوط. وإذا لم يتهيأ هذا فإنه قد يكون على المنبر أن يفعل ما تبرأ منه، ويتحول إلى حزب سياسي جماهيري يقوم مقام الأحزاب الفاشلة والدولة المنزوية.

* كاتب وباحث سوداني مقيم في لندن

غزة تحترق والعرب يتفرجون

د. محمد صالح المسفر

■ قلوبنا وأسماعنا وأبصارنا مشدودة نحو وسائل الإعلام المسموعة منها والمشاهدة والمقروءة، عربية كانت أو أجنبية، فلعلنا نسمع أو نرى ما يفرحنا عن أهلنا في فلسطين الأسيرة. حصار ظالم جربنا عذابه في العراق واليوم يطبق بكل صوره على أهلنا في فلسطين. والمحاصرون عرب في الحالين والضحايا هم من العرب. غارات عسكرية صهيونية جوية وبحرية وبرية على مدن وقرى ومخيمات لاجئين تدمر تحرق تقتل دون تمييز تحت ذريعة إنقاذ جندي صهيوني وقع في الأسر بيد المقاومة الوطنية الفلسطينية.

المتعارف عليه في كل الحروب يتم اسر جنود مقاتلين وهناك قواعد قانونية دولية تنظم التعامل مع هؤلاء الأسرى إلى الوصول إلى مرحلة التبادل بين الأطراف المتحاربة. لقد اعترفت حركة المقاومة الفلسطينية بأنها أسرت جنديا إسرائيليا وأنها على استعداد لتبادل ذلك الأسير مع أسرى مدنيين تحتفظ بهم دولة العدو الصهيوني، وقد حددت الحركة الوطنية الفلسطينية نوعية الأسرى الذين تريد تبادلهم بهذا الجندي الفرنسي الإسرائيلي وهم نساء وأطفال فلسطينيون اختطفتهم قوات العدو الصهيوني ويزيد عددهم عن عشرة آلاف أسير كما تقول بذلك مصادر المقاومة الفلسطينية. إن هؤلاء الأسرى من الفلسطينيين المطلوب تبادلهم كلهم من المدنيين وليس فيهم مقاتل إنهم أطفال لم يبلغوا سن الحلم وكذلك نساء بعضهن دون السن القانوني.

إن حكومة العدو الصهيوني لا يهمها إنقاذ الجندي الأسير في المرحلة الآنية، إنها تسعى لتحقيق غايات أخرى لم تعد مجهولة على احد. تقول صحيفة الفيغارو الفرنسية: «كل الدلائل تشير إلى أن الحكومة الإسرائيلية تسعى إلى أهداف غير إنقاذ الجندي الإسرائيلي. واعتقال وزراء ومسؤولين فلسطينيين منتخبين يشير بشكل فاضح إلى نواياها الحقيقية، إن الهدف الحقيقي وراء هذه الضجة هو انهيار السلطة الفلسطينية المنتخبة».

(2)

الغريب ليس سلوك القيادات الصهيونية إنما الموقف الفلسطيني ابتداء والموقف العربي شعبا وحكومات، خرج علينا قيادي من حركة فتح العتيدة ليعلن للزملاء اجمع قائلا: «نحن أمام فراغ قانوني ويجب أن نتصرف بسرعة واعتقد أن الرئيس محمود عباس يعي ذلك»..

يا للهول!! كنا نتوقع من هذا القيادي الفتحاوي وغيره من القبيلة أن يعصب رأسه ويتشح بالعلم الفلسطيني ويحمل سلاحه ويثأر لشهداء وطنه الذين قتلهم جيش العدو الصهيوني ويثأر لكرامة شعبه الذي مرغها العدو الإسرائيلي في الوحل عندما اختطف وزراء منتخبين ونواب برلمان ورؤساء بلديات وموظفين حكوميين. كنا نتوقع من هذا الرعيل أن يضع مصالح الشعب الفلسطيني، مصالح الوطن فوق مصلحته الذاتية وفوق مصالح حزبه العريق، إن لسان حاله يقول: يا ريس محمود عباس، هذه الفرصة لا تعوض معظم أعضاء الحكومة في المعتقلات الصهيونية ومعظم رؤساء البلديات أيضا هناك، فعليك أن تعيد الإدارة السابقة (حكومة قريع) إلى السلطة.

كنا نتوقع أن يعمل هذا الرهط الفتحاوي على الإصرار وبكل الوسائل على إطلاق سراح القيادات الفلسطينية المختطفة ــ الوزراء والنواب ورؤساء البلديات وغيرهم من القيادات لكونهم أفرادا من الشعب الفلسطيني بدلا من التفكير في ملء الفراغ كما قال بذلك عزام الأحمد وغيره من فتح أوسلو البغيضة.

كنا نتوقع أن يهب حرس الرئاسة الذي زود بسلاح حديث مؤخرا وكذلك قوات الأمن الوقائي، وكتائب أبو الريش، وكتائب شهداء الأقصى، وقوات جهاز الأمن الخاص، وفرق الموت، وطلائع الموت وكل الأجهزة الأمنية للدفاع عن وزراء الشعب الفلسطيني وقياداته المنتخبة والحيلولة دون اعتقالهم، أما وقد تم اعتقالهم من قبل جيش العدو الصهيوني فكان حريا بهذه الأجهزة وقياداتها أن تشمر عن سواعدها وان تستعيد هؤلاء الأسرى عن طريق القوة وذلك بالإكثار من اختطاف جحافل من قطعان المستوطنات والاحتفاظ بهم كرهائن حتى يطلق سراح الأسرى الفلسطينيين لكن مع الأسف الشديد فان تلك الأجهزة الأمنية آنفة الذكر، أفرادها وقادتها شداد غلاظ في مواجهة شركائهم في الوطن والمصير. وقد رأيناهم يمشطون شوارع غزة ومدن الضفة الغربية ومخيمات اللاجئين بصدور عارية وسواعد مفتولة ولكن ليس في مواجهة من يغتصب الأرض والعرض الفلسطيني ولكن في مواجهة الإخوة والأقارب. لقد نسوا أو تناسوا أن العدو الإسرائيلي لا يفرق بين فلسطيني وفلسطيني آخر في قمعه وهمجيته والمخطط الصهيوني هو ابادة كل فلسطيني بمن في ذلك فلسطينيو أوسلو.

(3)

في الشأن العربي يخيل لي بان هذه الأمة وقادتها قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة في هذا الزمن القبيح، فلسطين تحت أسماعهم وابصارهم تستباح من قبل قطعان المستوطنات المسلحين بأحدث أنواع الأسلحة، وقيادات الشعب الفلسطيني وزراء وغيرهم تختطف والزعماء العرب وكأن الأمر لا يعنيهم بل الأدهى والأمر أن بعضهم اتصلوا برئيس الوزراء الفلسطيني المناضل إسماعيل هنيه يحضونه ويلحون عليه في أن يأمر بإطلاق صراح الجندي الإسرائيلي الأسير لدى المقاومة الوطنية، وذلك بدلا من أن يمارسوا ضغوطهم على أمريكا حامية إسرائيل بان تأمر الأخيرة بفك الحصار وإعادة اعمار ما خربته قواتها المسلحة في البنية التحتية وإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين لديها في مقابل ذلك الجندي مزدوج الجنسية، وان يتوقف العدوان على أهلنا في فلسطين وان ما يجري من أحداث في العراق والسودان والصومال أمر مخيف ونحن عنه من الصامتين، فأي عرب انتم أيها العرب؟

العراق الاسطورة التي تستعصي على الادراك

صباح علي الشاهر *

■ لم يعد سوى كلام مكرر القول بان العراق مهد الحضارة البشرية، ولكن لابد من التأكيد مثنى وثلاث ورباع، أي حضارة؟ فالعديد من المناطق شهدت حضارات مُعتد بها، مرافقة ولاحقة لحضارة وادي الرافدين، حتى أن هناك بعض من يقول (ديورانت مثلاً) أن هناك إحتمالاً بان تكون ثمة حضارة أقدم من حضارة وادي الرافدين، ويشير في كتابه الفذ (أصل الحضارة) إلى إحتمالات أن تكون ثمة حضارة في الهند أقدم من حضارة وادي الرافدين، وإن لم يجزم بهذا. وكما هو معلوم هناك حضارات متقاربة زمنياً مثل حضارة وادي النيل، وحضارة الصين القديمة. ولكن مهما تعددت الحضارات المرافقة واللاحقة تظل حضارة وادي الرافدين شيئاً آخر. حضارة تؤشر لعبقرية متجاوزة متُخطية. عبقرية كونية، هي في العديد من جوانبها، معجزة، وخارقة، أحدثت نقلات عملاقة في تطور البشرية. ولست أدري كيف ستتطور البشرية لاحقاً لو أن الإنسان الرافداني لم ينجز ما أنجزه في الوقت والمكان الذي أنجز فيه هذا الإنجاز. يكفي القول ان إنسان وادي الرافدين كان الأول في أهم نقاط التجاوز في فجر الحضارة، فالسومريون والأكديون والأشوريون كانوا الأوائل في كل شيء تقريباً. وهذا أمر لم يحدث أبداً في أي مكان وزمان، لا سابقاً ولا لاحقاً.

في الزمن الغابر، وقت أن كانت دول عظمى الآن تعيش في الكهوف، أسسوا عاصمة كونية هي بابل وما أدراك ما بابل، بابل الإعجاز المجسّد، وعجيبة الدنيا، فيما بعد واصل العراق نبوغه فكانت بغداد عاصمة كونية ثانية، في زمان آخر وعهد آخر. ولم يقيّض لأي بقعة على وجه البسيطة أن تستأثر بهذا المجد، في عهدي البشرية، القديم والحديث. كيف ولماذا حدث ويحدث هذا، في هذه البقعة من الأرض، ومع إنسان هذه البقعة؟

ليس من السهل الإجابة على مثل هذه الأسئلة المحيّرة. هل يتعلق الأمر بطبيعة الإنسان على هذه البقعة، هل يتعلق بالجغرافية والموقع؟ أم بأشياء أخرى؟

عندما إنتصر الإسلام، تحوّل الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب إلى الكوفة في أرض العراق ليجعلها عاصمة الخلافة، هل حدث هذا إعتباطاً؟ أم أن الخليفة الرابع وجد إن الإسلام وقد إنتصر، فإنه ينبغي أن ينطلق على أكتاف أناس قادرين على الإنطلاق به، وإلى وسط وبيئة مهيئة تماماً ليس لهضم هذه القيم فقط، وإنما لنقلها إلى آفاق التجاوز العبقرية، ولم يخطىء الخليفة الرابع بهذا، فهنا في هذه الأرض، نشأت علوم القرآن والكلام كلها، وهنا أيضاً وُضعت علوم العربية والبلاغة، وعلوم العروض، هنا ظهر الكتّاب العظام الذين كتبوا وبحثوا في كل شيء تقريباً، وهنا أيضاً تأسس علم الكلام، إنطلقت الفلسفة الإسلامية، وأسست المذاهب، والملل والنحل، والمدارس الفكرية، هنا تكرّست وتجذرت علوم الفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات، والطب والصيدلة، وهنا ظهر المتصوّفة والزنادقة، هنا أسست أو جامعة، وأول مؤسسة للترجمة، ومن دار الحكمة خرجت المعرفة الإنسانية الخالدة، لتشرق على العالم كله.

عبثاً البحث في التاريخ عن ضرة لبابل في زمانها. وعبثاً لا طائل من ورائه البحث عن ضرة لبغداد في زمانها. بابل جميلة الجميلات، ملهمة المخيّلة، الغربية قبل الشرقية، وبغداد الأجمل والأروع والأحلى، بغداد التبغدد، والتبغدد ليس الغنج الفاضي، وإنما الدلال المُستحق المُستند على النعيم المرتبط بالتحضر والتمدن. كثيرة هي المدن الجميلة على سطح الكوكب، وكثيرة هي المدن التي منحت البشرية الكثير مما لا يُحصى من الإنجازات التي اضيفت لرصيد البشرية، ولكن تظل بابل القديمة الجديدة، مُتربعة على عرش الحلم الذي لا يُنال، بابل الحكيمة والقوية، بابل القانون والملاحم الشعرية، وبغداد الأصالة والنبوغ، إنهما معاً، في الظرفين المختلفين نتاج الأرض العراقية، والإنسان العراقي. إنهما التفرد والفرادة، وهذا ما لا أزعم أني أعرف سببه، والذي تختلط في تعليله الوقائع الثابتة والأسطورة. نعم كان العراق واقعاً يستعصي على الإدراك، وأسطورة تتجاوز الإدراك. وهذا الذي يستعصي على الإدراك ويتجاوزه، سيقول كلمته عاجلاً وليس آجلاً.

كثيرة هي البلدان التي قيض لها أن تكون وسطيّة. بين بين. قد تتطور وتنمو، لكنها لن تكون الذروة. هي دائماً في عسرها ويسرها، تابعة، أو شبه تابعة. فمصر العظيمة، هبة النيل، مجترحة الدهشات، مصر التي هي قلب الأمة ونبضها، مصر التي وصلت زمن الفراعنة أعلى ما تحلم به أمة، مصر القمة كانت حبيسة وادي النيل، منغلقة على نفسها، وهذه البلاد العظيمة شأنها شأن بلاد الرافدين، واصلت تطورها في مرحلة زمنية أخرى، وبلغت الذروة أيضاً في عهد الفاطميين، حيث تم بناء قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، لكن مصر الكبيرة العظيمة هذه كان يدعى في منابرها للخليفة العباسي في بغداد. وحتى في زمن عبد الناصر، أثرت مصر الناصرية على الشارع العربي، لكنها لم تقد العالم العربي. إنه شيء محيّر، يحتاج إلى دراسة متأنية، مستفيضة. حال العراق شيء آخر. لا توسط عنده، فإما أن ينام، ويخضع، حتى لتحس أنه انتهى وتلاشى، وفجأة ينهض من بين الركام مارداً، متزوداً بكل وسائل القوة والمعرفة.

إذ إستكان العراق ردحاً من الزمن، فإنه يستكين ريثما ينهض. لا توجد عاصمة قديمة دمرت وأحرقت عدة مرات كبابل، ولا توجد عاصمة في العصور الوسيطة دمرت وأحرقت عدة مرات كبغداد.

العواصم والحضائر الأخرى إذا ما دمرت وأحرقت، تنتهي. تصبح أطلالاً، ولكن بغداد كانت دوماً وأبداً تنهض من الركام. لماذا هذا هو شأن العراق والعراقيين، ولماذا هذا هو شأن بغداد كرمز حضري للعراق؟

لا توسط عندنا المجد أو القبر.

كان العراق شاغل الدنيا قبل خمسة آلاف سنة، وفي القرون الوسطى من التأريخ الميلادي، والآن أيضاً. يبدو لي أن المزاج العراقي لا يقتنع أن يكون ثانوياً، أو هامشياً. يدعمه في هذا النزوع التأريخ والجغرافيه، وعناد التجاوز، والقابلية على التجاوز.

لن يستقم وضع لأي من بلدان الجوار، والمنطقة، ولأي قوة عالمية تنهض، من دون إخضاع العراق، فإن لم يتم إخضاع العراق، لن تتم السيادة لأي قوة على المنطقة، وربما لا يمكن التفرد بالعالم.

عندما ابتدأ الإستعمار البريطاني في مد نفوذه، كان ينظر إلى الهند، درة التاج البريطاني، وعندما إحتل السواحل العربية في البحر العربي والخليج، ضمن الطريق السالكة إلى الهند، لكنه لم يكتف بهذا. كان يرى أن كل فتوحاته وإنتصاراته هذه ناقصة، طالما ظل العراق خارج نطاقه، حتى لو كان العراق تابعاً للدولة العثمانية. فبالهيمنة على العراق تتم الهيمنه على المنطقة والشرق، ودون الهيمنه على العراق، فالوجود البريطاني على كف عفريت. وكان بيت لنج، وكان السعي الدؤوب لإخضاع العراق العنيد، الذي تم لبريطانيا فيما بعد إخضاعه، ولكن ليس كما تم إخضاع الخليج أو الهند، أو حتى كما تم إخضاع مصر في زمن نابليون. لقد قدم الإنكليز ثمنا غالياً في حصار الكوت، وفيما بعد في ثورة العشرين.

العراق لم يصبر على الإحتلال سوى أقل من ثلاث سنوات ثم هب من أقصاه إلى اقصاه، مما دفع الإنكليز لنبذ فكرة أنهم يستطيعون حكم العراق حكماً مباشراً، مما دفعهم إلى منحه الإستقلال الشكلي. لا يوجد بلد عربي أو غير عربي لم يستطع الإستعمار البقاء على أرضه سوى سنتين ونصف السنة. ونمضي بالزمن بضعة عقود، فإننا سنجد أن الإستعمار عندما أراد خلق حلف يجمع البلدان التابعة، إختار العراق وبغداد بالذات مركزاً لهذا الحلف، فكان ما سُمي بحلف بغداد. لا حلف طهران أو استنبول أو إسلام آباد.

حقيقة يعرفها كل من يهتم بأمر المنطقة، الطريق إلى العالم العربي والشرق الأوسط، والعالم القديم يمر من بوابة العراق وبغداد.

للعراق إيحاءٌ وإلهام وسطوة على العقل والذاكرة. ليس فقط بالنسبة لتوسطه قلب العالم، وليس فقط بالنسبة لكونه صرّة التأريخ والحضارة، وإنما بالنسبة لإنسانه المبدع، بمقدرته على التجاوز والتأثير، وإجتراح المعجزة.

واليوم فإن إمريكا إذ تحتل العراق، تتلمس بعض أوجه هذه الأسطورة، لقد ارادت إمتلاك الأسطورة للهيمنة على المنطقة والعالم، لقد خمنّت إنها تستطيع إبتلاع الوطن المحاصر المتعب المثخن بالجراح، لكن الأسطورة تنبثق من رماد الحرائق، وتمخر في بحر الدماء.

وحتما، ومؤكداً ومن دونما أدنى شك، فإن إسطورة بابل وبغداد ستمرغ أنف أمريكا بالتراب.

* كاتب عراقي يقيم في لندن

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel/Fax: (9626) 5066089
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN